آفاق نجفية

مجلة فصلية مصورة تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة
المتخصصة بشؤون النجف الأشرف

١

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٦م

النجف

فكر وعقيدة وصراع

العلامة السيد محمد تقي الحكيم *

كنت اتمنى ان املك من وسائل (فن القول) ما يقوى على تجسيد ما احسه وانا في نشوة الاعداد لهذا اللقاء المبارك.

وتجسيد مثل هذا الاحساس المعمق لا يسهل بحال لضيق في وسائل الاداء - على وفرتها - عن النهوض بوظيفتها في مجالات التصوير والتجسيد وبخاصة بعد ان سخرت اللقاءات التقليدية بما تنطوي عليه من عواطف مفتعلة اكثر ما تملكه القواميس في هذا الشأن فلم يعد لها تلك القدرة على تمثيل واقع ما تؤديه من مضامين.

ومن هنا كنا نلجأ الى السمات الطبيعية وهي اقوى تعبيراً وابعد عن الافتعال لتقويم واقع ما تلمسه من عواطف الاخرين.

وما اكثر ما وجدنا في النظرة الحانية والبسمة الوادعة الحيية وطلاقة الاسارير المشرقة تجسيداً للعواطف المشبوبة أوضح في معالمه من اي تجسيد كلامي.

لقد تمثلت - وانا اعد هذه التحية - تجسيد العاطفة باوضح صورها في عيون اخواني ابناء هذا البلد المقدس وهم يتهيأون لاستقبال اكثر من مائة فكر ومائة قلب.

والتقاء هذا الحشد من القلوب والافكار في بلد يقيم للفكر والقلب وزناً لثورة في عوالم الافكار والأحاسيس لا تعدلها ثورة. تمثلت هذه العيون بنظراتها المشرقة وهي مشدودة اليها بنشوة اللقاء وقد لاشت الحدود بينها وحدة في العقيدة ووحدة في اللغة ووحدة في المصير

---

* عالم متبحر، من اساتذة الحوزة العلمية، محقق، أديب، عميد كلية الفقه في النجف، عضو المجمع العلمي العراقي وبعض المجامع العلمية العربية (ت١٤٢٣هـ).

وهذا نصّ الكلمة القيّمة التي حيّا بها وفود مؤتمر الادباء العرب الخامس بمناسبة زيارتهم لجمعية منتدى النشر وكلية الفقه يوم ١٣ ــ ٢ ــ١٩٦٥ ضمن زيارتهم للنجف الاشرف.

عن: مجلة الإيمان النجفية س٢ ع ١و٢ لسنة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م ص١٥٩ــ١٦٣.

فرأيت ان افضل ما نقدمه من تحية هذا الزخم العاطفي المجسد في ابناء هذا البلد وعيونه. ثم تمثلت من جانب اخر نظير ذلك الزخم وهو يتجسد في اروع صوره في وجوه اخواني الرادة وهم يعدون انفسهم لاحتضان هذا البلد المقدس ومعهم حشد من الاخيلة والطيوف والافكار، تطوف بهم حول ابهائه وقبابه لتختصر لنفسها من وراء ذلك تاريخ فكر وتاريخ عقيدة وتاريخ صراع وانا اعرف ان الاديب جوال لا يقر بحال وفي هذا البلد متسع لجولاته مهما كانت هوايته وطبيعة اختصاصه.

لقد تمثلت هؤلاء الاخوة – وهم يعدون لهذا اللقاء وعيونهم مركزة في سجل لهذا البلد تجاوز في عمره ثلاثة عشر قرناً اي منذ تحولت الكوفة على يد الامام علي (ع) الى عاصمة للعلم والحضارة الاسلامية وبقيت موصولة الجذور عبر تلكم العصور وحتى الان في معاهد النجف الاشرف العلمية والثقافية.

وقد تصدّر اولى صفحات ذلك السجل امام البلاغة ومفجرها امير المؤمنين (ع) وهو يخطط بصورة رائعة معالم نهجها الخالد ثم يعمد فيعبد الطريق الى مضامينه الثورية بتصميمه واصرار وقوة عزيمته ومن حوله الآف السالكين المترسمين لخطاه.

وكان من مظاهر ذلك الترسم ما حفل به سجل هذا البلد من قوة التصميم والاصرار وصدق العزيمة حتى اصبح طابعاً للكثير من اعلامه يتمثل لديهم في مختلف المجالات.

فمن مظاهر ذلك العزم والتصميم في مجالاتهم العلمية اصرارهم على بقاء باب الاجتهاد مفتوحاً رغم كل العوامل التي اوجبت غلقه في فترة من العصور.

وكان من نتاج ذلك تطوير الدراسات الفقهية والاصولية والفلسفية في معاهدها العلمية الى ما يتناسب وطبيعة عصورها وربما ارتفع الكثير منها عن مستويات تلكم العصور وقد عكست التطورات ما صدر عن هذه المعاهد من الموسوعات الفقهية والاصولية.

وكان من مظاهر ذلك العزم في المجالات الادبية اصرارهم على الوقوف امام الغزو الشعوبي في ايام الحكم العثماني يوم حاول القضاء على امتنا العربية بالقضاء على اهم مقومات شخصيتها وهي اللغة حيث وضع المخطط لابدالها باللغة التركية لغة الحاكمين إذ ذاك. فكان لمنابر الخطباء في هذا البلد وندوات الشعر والعمل على نشر وتعميق العلوم اللسانية في معاهدها اكبر الاثر في صد تلكم المحاولة.

وعقيدتي ان اهم عوامل الارتفاع في مستوى الشعر في مدارس النجف الشعرية على يد امثال السيد محمد سعيد الحبوبي والشيخ جواد الشبيبي والسيد جعفر الحلي كان وليد رد فعل لهذه المحاولة رغم انحطاطه في بيئات اخرى.

ويتضح هذا الطابع – اعني الاصرار والتصميم – في مواقف قادة النجف الاشرف من الغزو الاستعماري بواجهتيه الفكرية والعسكرية.

وقضيتهم مع الاستعمار قضية ذات جذور عميقة تبدأ خطوطها الاولى قبل نصف قرن وتستمر وقائعها حتى اليوم وستبقى ما دام للاستعمار عرق ينبض بدماء الشعوب في اي مكان.

وكانت بداية الصراع يوم زحفت بريطانيا على العراق بدعوى تحريره من ظلم الاتراك مستغلة الفجوة اذ ذاك بين الحكام وشعوبهم. فما كان من قادة هذا البلد إلا أن يسدلوا الستار على ماضي حكامهم من العثمانيين ليقفوا معهم يداً واحدة امام زحفها الكاسح وهم يفضلون – بوحي من عقيدتهم – تحمل المسلم لظلم اخيه . ريثما يصلح – على الاستنامة لوعود المستعمرين وانطلقت فتاوي الجهاد وزحفت الجموع واتخذ العلماء دورهم القيادي في المعركة وكاد النصر يقترب لولا ان يبيع بعض القادة من الاتراك ضمائرهم للأجنبي فيسلمونه البلاد.

وظن المستعمرون وقد استتب لهم الحكم المباشر ان الشعوب قد استنامت لتلكم الوعود بعد ان اضناها الجهاد وكادت فعلاً ان تستنيم لولا ان تهب من هذا البلد حملات التوعية لتعقبها صيحات المطالبة بالتحرر والاستقلال ثم انطلقت فتاوى علمائه الاعلام بالجهاد واستعمال القوة في انتزاع الحق وهب الشعب مرة ثانية وهو اعزل إلا من سلاح عقيدته ليقدم الاف الضحايا او يعود بوثيقة استقلاله وحريته.

وهكذا انتصرت ارادة الحياة في هذا الشعب الاعزل وانتزع الاستقلال لبلاده واختفى الغزاة من على المسرح ليبدؤا توجيه المعركة من وراء الكواليس.

وظل ابناء هذا البلد بعلمائه وكتابه وشعرائه يلاحقون الصراع مع الاستعمار – على اختلاف واجهاته – في فلسطين في الجزائر وفي سوريا، في ايران، في تونس، في المغرب، في ليبيا، في بور سعيد، في كل مكان.

وهذه اثارها وهي مكتوبة احياناً بدماء الضحايا من ابنائها تعكس ذلك الطابع من قوة الاصرار والعزيمة والتصميم.

أخواني الرادة:

إن معركتنا مع الاستعمار لم تنته بعد وما اخال انها ستنتهي في يوم ما ما دامت الواجهة الثانية واجهة الغزو الفكري هي التي تعمل باستمرار،وربما كانت أخطر علينا من سابقتها وما أصدق ما يقوله الشاعر النجفي:

مـا كـان أهـون شـانه مـستعمرا لـولم يقـم وسـط العقـول قواعـدا

وحسبها ان تنقل المعركة الى داخل صفوفنا باقتطاع قسم كبير من أبنائنا تمكنت من احداث بعض التشكيكات في نفوسهم في مدى صلوح تراثنا بما فيه من مثل وقيم وتخطيطات لتكوين حياة متطورة وقد نظمت منهم احزاباً وفئات ليخططوا بعيداً عن كل ما يتصل بانظمة الاسلام وقوانينه ويحاولون تطبيقها جهد ما يستطيعون.

وهنا ارجو ان يسمح لي اخواني الذين تجاهلوا دور هذا الغزو في احدى جلسات المؤتمر او انكروه ان اختلف معهم في هذا الشأن.

ورائدي في هذا الأختلاف ماالمسه ويلمسونه من تحول من كثير من المفاهيم والقيم عندنا الى نقائضها بفعل ذلك الغزو.

واي غزو اعظم من ان نجد من ينشر في صفوف المراهقين من ابنائنا وبناتنا صوراً للأنحرافات الجنسية فيها الكثير من التضخيم والأفتعال وفيها من قوة الايحاء ما لا يسهل مقاومته، أو يشيع في صفوفها القلق والتشاؤم ليقتل فيها ارادة الحياة او يعلمها-باسم الفن- أساليب التلصص والأعتداء على اعراض الناس وكراماتهم متخذا من وسائل البث كالتلفزة والسينما والصحيفة والكتاب طريقه الى ذلك.

والقول بأن هذا قدر تقتضيه حتمية بعض المذاهب النفسية أو الاجتماعية لا نقوى على الايمان به لمجافاته لواقع ما نحسه في انفسنا من حرية الارادة-ولو نسبيا-واين تذهب اذن ارادة التغيير فينا وما معنى الدعوة بعد ذلك الى اصلاح انفسنا اذا كنا مسيرين بواقع تلكم المذاهب والذي أرجوه الا يفهم من كلامي هذا انني ادعو الى الانغلاق امام الثقافة الغربية أو اتناسى دورها في احداث التلاقح الفكري ولكن الذي اريده ان نكون امامها نقادا وصيارفة لا ينتقون من تجاربها سوى العملة الجيدة مستشعرين مسؤليتنا اما الله وضمائرنا في كل ما نحظه ونطق به.

ولدينا اليوم من اقلامكم المبدعة ومن وسائل البث التي تملكون ما يبعث على التفاؤل في انتصارنا على ذلك الغزو وعسى ان نرى في مقررات مؤتمركم هذا-وهو الذي اخذ على عاتقه الاضطلاع بدور الهدم والبناء-ما ينبع من صميم ديننا وتراثنا وقيمنا متخذين من قوة العزيمة والاصرار والتصميم وسائل لتحقيق ما انتهى اليه.ولكم علينا ان نضع العشرات من تجارب أساتذة كلية الفقه وخريجيها وطلابها وأعضاء المجمع الثقافي لمنتدى النشر تحت تصرفكم لبناء تلكم الاهداف.

أخذ الله بيدكم الى ما فيه خير الامة وصلاحها وشكرا لكم على هذه الزيارة.